خلاص غير المسيحيّين
في نظر بعض اللاهوتيّين الأرثوذكس

الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ *

أجريتُ حديثًا حول قضيّة «خلاص غير المسيحيّين»، مع ثلاثة مُمثّلين لثلاث طوائف أرثوذكسيّة، أوّلهم كاهن أرمنيّ، وثانيهم كاهن سُريانيّ، وثالثهم علمانيّ قبطيّ مُلتزم لاهوتيًّا في كنيسته[1].

إنّهم لا يُمثّلون كنائسهم تمثيلًا رسميًّا؛ ورغم ذلك فإنّي أعتقد أنّهم يُعبّرون عن نظرة كنائسهم في الموضوع الذي نحن بصدده. وإنّي أعتبر أنّ ما توصّلتُ إليه معهم يستدعي مزيدًا من التعمُّق من حيث عدد الأشخاص والطوائف، ومن حيث دِقّة الإجابات. ومع ذلك، فحسبُنا ما أعرضه على هذه الصفحات. آملًا أن يكون بمثابة نُقطة انطلاق لأبحاث وآراء ووجهات نظر أخرى[2].

طرح سؤال «خلاص غير المسيحيّين»

إنّ كنيستَي [أ] و [س] لم تطرحا السؤال. يقول [أ] في هذا الصدد - ما يعني:

(*) مدير كلّيّة العلوم الدينيّة - السكاكيني، القاهرة.

(١) الرموز: [أ] أرمنيّ - [س] سريانيّ - [ق] قبطيّ.

(٢) لقد عرضتُ وجهة نظري الكاثوليكيّة في مجلّة صديق الكاهن القبطيّة الكاثوليكيّة - ١٩٩٤ - عدد ١ و٢ - عرضًا كتابيًّا مبنيًّا على اعتقاد المجمع الڤاتيكانيّ الثاني بإمكانيّة خلاص غير المسيحيّين.

«ليس لدينا حوار مع المسلمين لنطرح السؤال. لا ننكر أنّ ثمّة بعض التساؤلات، ولكنّ الموضوع، باعتباره قضيّةً لاهوتيّة، لم يُطرح. غير أنّ أرمينيا تحظى الآن بالحرّيّة. فهل سينجم عن ذلك حوار مع مَن يدّعون - من المذاهب البروتستانتيّة مثلًا - أنّ هناك خلاصًا خارج المسيح؟ فعندما ستُطرح علينا القضيّة، فحينذاك يُمكننا دراستها».

حُجّة «خلاص المسيحيّين» فقط

تُجمع الطوائف الثلاث على خلاص المسيحيّين فحسب، وذلك اعتمادًا ضمنيًّا على آيتين كتابيّتين:

«مَن آمن واعتمد يخلص

ومَن لم يؤمن يُحكم عليه» (مرقس ١٦/١٦).

«ما من أحد يُمكنه أن يدخل ملكوت الله

إلّا إذا وُلد من الماء والروح» (يوحنّا ٣/٥).

وتُفهَم الآيتان المذكورتان على النحو التالي:

«الحقّ يقال إنّنا لا نُشدّد على عدم خلاص غير المسيحيّين، بقدر ما نُركّز على الخلاص بيسوع المسيح. وهذا ما نُعلّمه في عِظاتنا وفي مدارسنا» [أ].

* وإنّ منطق [س] هو الآتي:

١ - «إنّ اليهود يرشّون الشعب بدم الذبائح الحيوانيّة لمحو خطاياهم. وأمّا نحن، فنخلص بدم المسيح. إنّ خلاصنا بصليب المسيح؛ ويُقرّ المسلمون أنّ المسيح لم يُصلب بل صُلب أحد تلاميذه.

٢ - بدون الإيمان بالمسيح ابن الله الحيّ، لا يُمكن دخول ملكوت الله ولا نيل الحياة. فقد قال يسوع: «مَن أنا في قولكم أنتم؟». فأجابه بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (متّى ١٦/ ١٥-١٦). لذلك ترك بولس اليهوديّة ليخلص. وأمّا اليهود والمسلمون، فلا يعترفون أنّ

المسيح ابن الله.

٣- إنّ حياة المسيح تُمنح من خلال الأسرار التي تهب نعم المسيح والروح القدس: المعموديّة والميرون والإفخارستيّا:

- «إذا لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه
- فلن تكون فيكم الحياة» (يوحنّا ٦/٥٣).
- وكذلك مَن لا يعتمد[٣].

٤- غير أنّ الخلاص للجميع».

* وأمّا رأي [ق] فهو:

١- «المسيح هو الطريق الوحيد إلى الخلاص. ولا يتطرّق الكتاب المقدّس إلى وسيلة أو طريق آخر يختصّ بالذين لا يؤمنون بالمسيح.

٢- لا بُدّ من الإيمان، لا الإيمان النظريّ، بل ممارسة الأسرار ولاسيّما المعموديّة والتوبة».

دور شريعة غير المسيحيّين وضميرهم

وُجِّه سؤال حول قول بولس الشهير في رومة ٢/١٢-١٦، هذا نصّه:

«الذين خطئوا وهم بغير شريعة يهلكون أيضًا بغير شريعة. والذين خطئوا وهم بالشريعة يُدانون بالشريعة. فليس الذين يُصغون إلى كلام الشريعة هم الأبرار عند الله، بل العاملون بالشريعة هم الذين يُبرَّرون. فالوثنيّون الذين بلا شريعة، إذا عملوا بحسب الطبيعة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم، هم الذين لا شريعة لهم، فيدلّون على أنّ ما تأمر به الشريعة من الأعمال مكتوب في قلوبهم، وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم، فهي تارة تشكوهم وتارة تُدافع عنهم. وسيظهر ذلك كلّه، كما أُعلن في بشارتي، يوم يدين الله بيسوع المسيح ما خفي من أعمال الناس».

---

(٣) الجدير بالإشارة أنّ آية مرقس الآنفة الذكر لا تقول: «مَن لم يعتمد يُحكم عليه»، بل «مَن لم يؤمن» فحسب، في حين أنّها تقول: «مَن آمن واعتمد يخلص».

فما هو تفسير هذا النصّ؟:

* «المشكلة هي الاعتماد على آية (تؤيّد فكرة خلاص غير المسيحيّين، مثل هذه) وترك سائر الآيات (التي لا تؤيّدها). ثمّ لا ننسَ أنّ بولس أراد أن يكون «يهوديًّا مع اليهود، ويونانيًّا مع اليونانيّين» «ليربحهم للمسيح»، فيخلصوا. فلا عجب بالتالي إذا تقرّب إليهم» [أ].

* «عندما فسد الإنسان، دوّن الله الشريعة، لأنّ قلب الإنسان أصبح قاسيًا شاذًّا. واليهود أيضًا فسدوا نوعًا ما، فأنزل الله عليهم الشريعة الموسويّة - أي الوصايا العشر - وهي شريعة طبيعيّة. وأمّا الوثنيّون، فضميرهم بمثابة الشريعة.

ومن جهة أخرى، كتب بولس ذلك عندما لم تصل البشارة بعد إلى الجميع. فهُم بالتالي يُدانون بحسب شريعتهم أو بحسب ضميرهم. وأمّا الآن، فقد وصلت البشارة إلى جميع الناس (فلا يقصد إذًا كلامُ بولس خلاص غير المسيحيّين)» [س].

* «لم يقصد بولس في هذا النصّ خلاص غير المسيحيّين، بل إدانتهم. فالشريعتان - اليهوديّة والطبيعيّة - لا تستطيعان أن تُوصِّلا إلى الخلاص؛ فكلّ ما بوسعهما أن تقوما به، أن تُعِدّا للإيمان - لا للخلاص - شأنهما شأن الطبيعة التي خلقها الله، أو الكرازة التي يكرزها الكارزون. فليست هناك وسيلة للخلاص إلّا عن طريق المسيح» [ق].

قيمة قيام غير المسيحيّين بأعمال الرحمة

وقد وُجِّه سؤال آخر حول كلمة يسوع المأثورة:

«رثوا الملكوت المُعَدّ لكم منذ إنشاء العالم.

لأنّي جُعتُ فأطعمتموني...

كلّ ما فعلتم لأحد هؤلاء الصغار إخوتي

لي قد فعلتموه...» (متّى ٢٥/ ٣٤-٤٠).

أفلم يقصد يسوع بكلمته هذه خلاصَ غير المسيحيّين أيضًا؟ وكانت الإجابات الآتية:

* «إنّ هذا القول يُمثّل لنا بالفعل تساؤلًا. فإذا مشوا على طريق ربّنا، فبدون أن يعرفوا قد يكونوا - وهذا مُجرَّد تساؤل - خلّصوا أنفسهم. والله لم يمنحهم نعمة الخلاص بل نعمة إمكانيّة القيام بعمل الخير.

الحقّ يقال إنّ هذا النصّ يُمثّل تناقضًا (بالنسبة إلى سائر النصوص التي لا تؤيّد خلاص غير المسيحيّين). فكيف نحيا هذا التناقض؟ هناك مُستويان: المستوى الفكريّ (النظريّ) الذي يقول: «لا» (لخلاص غير المسيحيّين)، والمستوى اليوميّ (العمليّ) الذي يقول: «رُبّما» [أ].

* «لا يُمكن أن تكون الأعمال سببًا للخلاص إن لم تقترن بالإيمان. وإن لم يُذكر هنا الإيمان، فلأنّه لا يُذكر في جميع الآيات، بل هو ضمنيّ. إنّ الأعمال هنا هي إيمان عمليّ.

(وبوجه عامّ) يُمكن القول إنّ الأعمال لا تؤدّي إلى الخلاص بل تُعِدّ للإيمان، شأنها شأن الشريعتين والطبيعة والكرازة» [ق].

ما هو مصير أربعة مليارات من البشر غير المسيحيّين؟

وُجِّه أخيرًا سؤال حول مصير أربعة أخماس البشريّة الذين لا يعرفون المسيح ولا ينتمون إلى الكنيسة بالمعموديّة؛ فهل يهلكون هلاكًا أبديًّا رغم أنّ الله يُريد خلاص جميع البشر وحياتهم؟ وكانت الإجابات على النحو الآتي:

* «لا يحقّ لنا أن نحكم عليهم، فالدينونة لا تخصّنا بل تخصّ الله الذي يفعل ما يشاء؛ فعدلُه لا يكفي، بل هناك رحمته أيضًا.

ورُبّما سُنفاجأ في يوم الدينونة (بخلاصهم). فالباب مفتوح، وإن أغلقنا (عليهم باب الخلاص) أغلقناه على أنفسنا. فنحن لا نعرف ما وراء

الحائط وما وراء البناية. وقد يكون (في السماء) أناس (غير مسيحيّين) أكثر منّا (نحن المسيحيّين). لن يُفهَم ذلك إلّا في اليوم الأخير» [أ].

* «إنّ الله لا يُريد موت الخاطئ بل خلاصه». وفي سبيل ذلك:

١ - أحبَّ البشرَ حتّى اشترك في طبيعتنا (بتجسُّده) ليُشركنا في طبيعته (الإلهيّة).

٢ - نزل إلى الهاوية (بعد موته وقيامته، ليُخلِّص) الموتى الذين كانوا في قبضة الشيطان.

٣ - يُدين الناس الذين لم تصل إليهم البُشرى - الصينيّين مثلًا - إدانة خاصّة (مُختلفة عن سائر غير المسيحيّين).

أمّا الآن فقد وصلت البُشرى إلى جميع الناس، في جميع اللغات، وذلك بفضل التكنولوجيا والعلم والثقافة؛ فالمسيحيّة معروفة في جميع أنحاء العالم. لذلك سيذهب الأشرار إلى جهنّم والأبرار إلى الملكوت. والبُرهان على ذلك، أنّ أريوس ونسطوريوس حُرِما لأنّهما أنكرا المسيح؛ ولم تُلغِ الكنيسة إلى اليوم الحرمان (الذي استوجباه، فهُما إذًا من الأشرار)» [س].

١ - «إنّ يوم الدينونة يخصّ الله، فالله يعمل ما يُريد. وليس من حقّي أن أجعل نفسي (قاضيًا) كأنّي الله.

٢ - (وعلى نقيض ذلك) لا (أستطيع أن) أستنتج شيئًا بعيدًا عمّا أوضحه الإنجيل (مثل خلاص غير المسيحيّين).

٣ - (وإذا جمعنا ما سبق، يجب الاعتراف أنّنا) نعيش في لُغز، (ونرى حقيقة هذا الموضوع) كمن يرى في مرآة. فالمسيح لم يكشف لي (مصيرَ غير المسيحيّين)، ولكنّ السؤال ليس: «هل يهلكون؟» (لأنّهم بالفعل يستوجبون الهلاك، وهذا أمر لا يستدعي السؤال عنه لأنّه واضح في الإنجيل). وقد أكون مُقصِّرًا ومسؤوليّتي كبيرة (في عدم الكرازة بالمسيح)» [ق].

نظرة نقديّة

ما الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الأحاديث؟ لا يسعنا أن نستنبط وجهة نظر مُنسَّقة ونظاميّة وجازمة للطوائف الثلاث أو لسائر الطوائف الأرثوذكسيّة. ويعود ذلك إلى أسباب واضحة: أوّلها ضآلة عدد الأشخاص الذين أجرينا معهم الحديث؛ وثانيها حصر الأسئلة المطروحة عليهم في بعضها بدون التطرّق إلى سائر النصوص الكتابيّة ولا إلى أقوال آباء الكنيسة؛ وثالثها عدم حصولنا على مقالات أو كُتب تُعالج قضيّة خلاص غير المسيحيّين، بسبب حساسيّة هذا الموضوع في بيئتنا الإسلاميّة...

ورغم قصور حديثنا هذا، إلّا أنّه بُوسعنا أن نُثير بعض التساؤلات:

* لماذا لم يتطرّق الحديث اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ إلى مثل هذه القضايا اللاهوتيّة، ولاسيّما إلى خلاص غير المسيحيّين كأفراد، وإلى دور الديانات غير المسيحيّة كديانات، رغم أنّ الكتاب المقدّس - في عهديه القديم والجديد - يُشير إلى مثل هذه التساؤلات وإلى قصد الله في خلاص البشر وإلى تحقيقه له سواء أكان بالإيمان بإله الاختيار والعهد، أم بالإيمان بيسوع المسيح والانتماء إلى الكنيسة من خلال الأسرار المقدّسة، أم بحسب الضمير والأعمال...؟ ورغم أنّ آباء الكنيسة - شرقًا وغربًا، وعلى مرّ عصور تاريخها - قد أبدوا آراءهم في هذه القضايا؟ فلماذا لم تُولِها الكنائس الأرثوذكسيّة أهمّيّة، على خلاف الكنيسة الكاثوليكيّة وبعض الجماعات البروتستانتيّة؟ هناك عِدّة أسباب في نظرنا:

١ - سبب اجتماعيّ

نظنّ من جهتنا أنّ سببًا من الأسباب يعود إلى كون مُعظم الكنائس الأرثوذكسيّة تعيش كأقلّيّات في وسط أغلبيّة إسلاميّة (أو شيوعيّة) فتشعر بأنّها مهدّدة لأنّها كنائس وطنيّة لا تحظى بمُساندة الكنائس العالميّة. فإنّ شعورها هذا بالتهديد لا يُتيح لها الجوّ الملائم لطرح مثل هذه القضايا،

ولا لكتابة مُعتقدها في كتب أو مقالات قد تقرأها الأغلبيّة.

٢ – سبب رعويّ

وإنّ لهذا الجوّ أثرًا آخر، وهو التخوّف من الارتداد إلى الإسلام، ولا سيّما في ما يتعلّق بالقضايا الزوجيّة حيث لا يستطيع مسيحيّ أن يتزوّج من مُسلمة بدون أن يُشهر إسلامه. ففي هذا الجوّ، قد يُؤدّي الاعتراف بخلاص غير المسيحيّين إلى الإكثار من التحويل إلى الإسلام بطريقة طبيعيّة.

٣ – سبب إيمانيّ

وثمّة سبب آخر، وهو أنّ الإقرار بخلاص غير المسيحيّين قد يُفضي بالمسيحيّين إلى الاعتراف بنسبيّة الأديان: فإن كان جميع البشر من جميع الأديان يخلصون، فلماذا يكون أو يظلّ أو يُصبح الإنسان مسيحيًّا؟ ولماذا على المسيحيّ أن يُعلن يسوع المسيح ربًّا وإلهًا ومخلِّصًا؟

إن كان السبب الإيمانيّ هذا هو الأساس، إلّا أنّ التركيز عليه تركيزًا قد يكون أحيانًا مُتضخِّمًا، يعود إلى السببين الاجتماعيّ والرعويّ السالفي الذكر.

* ولدينا قناعة – بالإضافة إلى التساؤلات السابقة – ألا وهي أنّ أيّ حديث لاهوتيّ عليه أن يُحافظ على مُفارقة (Paradoxe) النصوص الكتابيّة التي توحي بأمرين قد يظهرا لأوّل وهلة أنّهما مُتناقضان، بيد أنّهما في الحقيقة مُتكاملان: فمن جهة، إنّ الوحي يُعلن ضرورة الإيمان بيسوع المسيح والاعتماد باسمه لنيل الخلاص؛ ومن جهة أخرى، إنّه يُعلن إمكانيّة خلاص جميع البشر بيسوع المسيح وبه وحده، وإن لم يعرفوه ولم يؤمنوا به، بناء على قصد الله الخلاصيّ الشامل وبحسب شرائعهم أو ضميرهم أو أعمالهم.

فكيف التوفيق بين قُطبَي حقيقة الخلاص المتناقضين ظاهريًّا، والحفاظ عليهما، والإيمان بهما؟ هذا هو دور اللاهوتيّين. فعلى

اللاهوتيّين الشرقيّين أن يأخذوا بعين الاعتبار جِدِّيًّا قصد الله الخلاصيّ الشامل، وإمكانيّة خلاص جميع البشر بما فيهم الذين لا يؤمنون بيسوع المسيح ولا يعتمدون باسمه ولا ينتمون إلى كنيسته (وذلك بموجب متّى ٢٥/ ٣٤-٤٠ وروم ٢/ ١٢-١٦ وغيرهما من النصوص الكتابيّة). كما أنّه على اللاهوتيّين الغربيّين أن يأخذوا بعين الاعتبار جِدِّيًّا ضرورة الإيمان بيسوع المسيح والاعتماد باسمه (وذلك بموجب مر ١٦/ ١٦ ويو ٣/ ٥ وغيرهما من النصوص الكتابيّة). فاللاهوتيّون الشرقيّون والغربيّون في أمسّ الحاجة إلى تضافر جهودهم اللاهوتيّة للتفكير في قضيّة خلاص غير المسيحيّين وقضيّة دور الأديان غير المسيحيّة اللاهوتيّ في قصد الله الخلاصيّ الشامل. ولم تَعُد المسألة الاختيار بين وجهتَي نظر مُختلفتين، بل الحوار اللاهوتيّ المسكونيّ المبنيّ على احترام كلّ وجهة نظر لاهوتيّة، والاستفادة من كلّ وجهة نظر لاهوتيّة، وقبول سرّ الله كما يُعلَن عنه في الوحي وكما يتجلّى ويكتمل في يوم الدينونة.

فلقد أشارت الأحاديث إلى أنّ موضوع الدينونة يخصّ الله لا الإنسان، واعترفت بأنّ قضيّة خلاص غير المسيحيّين مطروحة، فلم تُغلِق إذًا على اللاهوتيّين بابَ الاجتهاد؛ فيجب عليهم أن يؤدّوا رسالتهم اللاهوتيّة - ولا سيّما الاجتهاديّة - في هذا المضمار.

ويروق لي أن أختم حديثي بما قاله پول إفدوكيموف (Paul Evdokimov) أحد اللاهوتيّين الروحانيّين الأرثوذكس المعاصرين:

«نحن نعرف أين توجد الكنيسة

ولكن لم يُعطَ لنا أن نُلقي حُكمًا فنقول أين لا توجد».

فأطبّق قوله هذا على قضيّة خلاص غير المسيحيّين:

«نحن نعرف مَن يخلُصون

ولكن لم يُعطَ لنا أن نُلقي حُكمًا فنقول مَن لا يخلُصون».

صدر حديثًا عن دار المشرق